شيراز وابنها سعدي

د. عبد الكريم اليافي

ألقي البحث في ندوة سعدي الشيرازي التي عقدت بدمشق في شهر نيسان الفائت بمناسبة مرور ثمانمائة عام على مولده .

عَمرَتْ أكثرَ بقاع المعمورة حقبةً طويلة من الزمان ولا تزال تعمرها حضارةٌ متألقة عمّ نورها الكون تعلي شأن الانسان وتساوي بين الشعوب وترفع أعلام الحرية والاخاء بينها وتحفز على العلم ومكارم الأخلاق والقيم الانسانية الرفيعة وهي الحضارة العربية الاسلامية .

لقد تشرف العرب بوحي الرسالة وحملها ولكن لم تلبث الشعوب الظامئة الى التقدم والعدالة والمساواة أن شاركت العرب مشاركة فعالة وقوية في حمل تلك الرسالة العظيمة وتأجيج نورها . ومن أهم تلك الشعوب الشعب الايراني بمناطقه المختلفة شمالية وجنوبية شرقية وغربية . على أن تلك الشعوب قد اختلطت اختلاطاً عجيباً حتى انه ليصعب أن نفرق بين العربي والعجمي وأن نميز بعضاً من بعض اذ لا فرق لامرىء على آخر ولا لشعب على آخر الا بالتقوى المؤدية الى تحقيق المكارم والقيم العالية ، وذلك على خلاف ما نجده اليوم من التمييز العنصري والتفرقة الطبقية وغطرسة الدرهم والدينار وعجرفة بيوت المال وخزائن الدولار .

من تلك البقاع الواسعة في ايران اقليم فارس في الجنوب . يقول فيه صاحب أحسن التقاسيم : « اقليم جليل طيب الخيرات ومعدن التجارات . » وهو كثير الشبه ببلاد الشام طبيعة وجواً وغلالا . يقول فيه المؤلف نفسه المقدسي البشاري، وقد سئل كيف وجدت فارس ؟ : «وجدتها أشبه الأقاليم بالشام لأنها تجمع أضداد الثمار وبه جروم (أماكن شديدة الحر) وصرود (أماكن شديدة البرد) ومعتدلات وجبال مشجرة عامرة وعسل وزيتون وبركات لم أرها بعد الشام الا بفارس .»

من أهم مدنه شيراز . وقد كانت قصبته حقبة من الزمان . كانت في الأصل بلداً صغيراً ولكن العرب مصّروها ووسعوها . وكانت عمارتها على يد محمد ابن يوسف أخي الحجاج بن يوسف حين جعله هذا نائباً عنه يدير الاقليم في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان كما يقول كتاب « فارس نامه » لابن البلخي. ولكن ياقوتاً في معجمه يذكر أن « أول من تولى عمارتها محمد بن القاسم بن عقيل ابن عم الحجاج . » ولا يمنع أن يكون الثاني قد زاد في بنيانها وعمارتها . وقد استطابها الملوك والأمراء وأولو الشأن فنزلوها .

لقد كثرت المنازه والحدائق والمدن الطيبة في اقليم فارس ولا بد عند مقارنته ببلاد الشام من التنويه بشِعب بوّان فيه وهو الموصوف بالحسن وكثرة الشجر وتدفق المياه وتنوع الأطيار ومنذا الذي لا يذكر وصف أبي الطيب المتنبي له حين مر به قاصداً عضد الدولة :

مغاني الشعب طيباً في المغاني   بمنزلة الربيع من الزمان

روي أنه كان من متنزهات الدنيا حتى إن بعضاً قال :

« جنان الدنيا أربعة مواضع : غوطة دمشق ، وصغد سمرقند وشعب بوّان ونهر الأبلّة » كما جاء في معجم البلدان .

وقريب من قصبة شيراز بليدة جور نسب اليها الورد الجوري أخو الورد الشامي الذي حمل اسم الزهرة البديعة في أنحاء العالم Rosa damascena ذات العطر الفاغم واللون الأحمر الزاهي. وموسمه في أواخر نيسان وأوائل أيار . ذلك الورد الذي ألهم شاعراً شيخاً هو عمر بن الوردي بيتين من الشعر يصف بهما وجنتي حبيبته معتمداً فيهما على التورية :

قالت : اذا كنت ترجو أنسي وتخشى نفوري
صف ورد خدي والا أجور ناديت : جوري

زادت عمارة شيراز كثيراً في عهد الديالمة ولا سيما في زمن عضد الدولة . لقد وصف المقدسي بناءً شاده عضد الدولة فقال : « وبنى في شيراز داراً لم أر في شرق ولا غرب مثلها . ما دخلها عامي الا افتتن بها ولا عارف الا استدل بها على نعمة الجنة وطيبها . خرّق فيها الأنهار ونصب عليها القباب وأحاطها بالبساتين والأشجار وحفر بها الحياض وجمع فيها المرافق . »

ووصف أيضاً خزانة الكتب التي فيها فقال : « لم يبق كتاب صنّف الى وقته من أنواع العلوم كلها الا وحصّله فيها . وهي أزج طويل (بناء مستطيل) في صفّة كبيرة فيه خزائن من كل وجه . وقد ألصق الى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوتاً طولها قامة في عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوّق عليها أبواب تنحدر من فوق . والدفاتر منضدة على الرفوف لكل نوع بيوت وفهرستات فيها أسامي الكتب لا يدخلها الا وجيه . وطفت في هذه الدار سفلها وعلوها فرأيت في كل مجلس ما يليق به من الفرش والستور » الى أن يقول : « وأظنه بناها على ماسمع من أخبار الجنة » .

ثم انتقلت الولاية الى حكم السلاجقة فوجهوا عنايتهم أيضاً نحو الانشاء فأقاموا المدارس ووقفوا عليها كثيراً من الخيرات .

ولما انتقل هذا الاقليم الى حكم الأتابكة سنة ٥٤٣ هجرية شرعت مكانة شيراز في عهدهم تعلو شيئاً فشيئاً وبلغت ذروتها في عهد أبي بكر بن سعد بن زنكي . والأتابك لفظ تركي الأصل بمعنى الوصي أو الأمير الوالد أو نائب السلطان (أتا بمعنى الجد أو الأب وبك رتبة عالية) .

لا غرو في ذلك الاقليم البديع أن ينشأ عظماء أعلام في مختلف العلوم والثقافات والفنون . ذكر طائفة منهم مؤلف معجم البلدان . ولقد روي في الأثر : « لو كان العلم معلقاً بالثريا لناله رجال من فارس » . وسواء أكان المراد اقليم فارس نفسه أم هذا الاقليم مع خراسان أم أقاليم ايران جملة فلا شك أن الايرانيين وأهل خراسان وما وراء النهر كانت لهم اليد الطولى في تلألؤ الحضارة الاسلامية واغناء التراث الانساني الفكري والفني .

من أولئك العظماء الذين نشؤوا في شيراز ونسبوا اليها الكاتب الشاعر المفكر الانساني مشرف بن مصلح أبو عبدالله سعدي الشيرازي · ومن أغرب الأمور أن هذا العلم البارز لم يتأكد بالضبط تاريخ ميلاده ولا تاريخ وفاته · كذلك ثمة اختلاف في تحقيق اسمه وان كان معلوماً أن شيراز مسقط رأسه ومثوى رفاته · وأياً كان الخلاف فان مولده كان في غرة القرن السابع الهجري· (٦٠٥؟).

عمل والده في بلاط الأتابك سعد بن زنكي · ولم يكد الفتى ينشأ حتى توفي والده · فتولى الأتابك تنشئته ورعايته والعناية به ، اذ لمح فيه مخايل النبوغ · وبعد أن شدا شيئاً من العلم في شيراز نفسها أرسله الأمير الى بغداد عاصمة الدنيا اذ ذاك ليلتحق بمدارسها ولاسيما المدرسة النظامية التي أسسها الوزير المشهور نظام الملك وكذلك المدرسة المستنصرية في بغداد · التقى طائفة من العلماء ومن أشهرهم شهاب الدين السهروردي صاحب كتاب « عوارف المعارف » وشيخ الصوفية اذ ذاك وابن الجوزي يوسف بن عبد الرحمن أبي الفرج الذي ولي التدريس في المستنصرية وقتله التتار شهيداً صبراً هو وأولاده الثلاثة يوم دخول هولاكو بغداد سنة ٦٥٦ · وكذلك اتصل في رحلاته الواسعة ببعض شعراء الفرس المشهورين يذكر الرواة منهم ثلاثة هم همام التبريزي من شمالي ايران والأمير خسرو الدهلوي من الهند وجلال الدين الرومي من قونية في آسية الصغرى · وتحف بكل واحد من هؤلاء الشعراء الأعلام قصة في سبب اتصاله بالشاعر ·

شهرته هي نسبة الى سعد بن زنكي الأمير الأتابكي في شيراز الذي تولاه بعد وفاة والده على أن بعض المؤرخين ينسبونه الى حفيد ذلك الأمير سعد بن أبي بكر بن سعد بن زنكي الذي عاصره في أخريات حياته حين رجع الى شيراز وأقام بها محوطاً بالاكرام والتبجيل والانعام ·

نشأته في شيراز ودراسته في بغداد هي المرحلة الأولى في حياته · ويورد الرواة المرحلة الثانية من حياته وهي حقبة الرحلات الكثيرة فيذكرون أنه زار معظم مدن آسية الصغرى وأذربيجان والعراق وسورية ومصر والمغرب والحبشة والحجاز ، وقد يذكرون كشغر في بلاد الترك بالشرق ويرون أن هذه الرحلات

استغرقت ثلاثين سنة ، جعلته يضيف الى علمه النظري تجارب واسعة في صروف الحياة وفهماً نافذاً لطباع الناس ولأخلاقهم ولعاداتهم ·

ومهما يكن من أمر هذه الرحلات واختلاف التحقيق والتردد في قبول حدوث بعضها فقد عاد أخيراً الى موطنه الأصلي وألقى عصا التسيار فيه وآثر العزلة والتأليف اذ نظم وألف كتابيه المشهورين بوستان وكلستان · وربما كان قد نظم بعض القطع وكتب بعض النتف منهما في ابان رحلاته فضمها وأودعها كتابيه المتلاحقين · ومرحلة التأليف والاعتزال هذه هي المرحلة الثالثة وان كانت شهرته قد تطايرت منذ صباه في نظم الشعر ولاسيما الشعر الغزلي البديع ·

على أننا نحب ألا ندع هذه المناسبة دون أن نذكر بعض صور حياته في بلاد الشام · فقد كان يختلف الى العلماء ويعظ في المساجد وهو محفوف بالاحترام والتبجيل وقد جمع اذ ذاك شهرتين شهرة الكاتب الكبير وشهرة الواعظ الديني الخطير ·

يورد في كلستان حكاية له بجامع بعلبك جعل يعظ فيه الناس فانثالت عنيه المعاني انثيالا حتى انتشى هو نفسه بها ولكن أنفاسه الملتهبة لم تجذب السامعين أول الأمر الى حظيرة القرب كما يقول واذا بعابر سبيل مرّ بطرف المجلس فسمع جزءاً من كلامه وتأثر فصاح صيحة ردد صداها آخرون وغدا المجلس يموج بعضه في بعض من الوجد فقال في نفسه : سبحان الله ! البعيد حاضر بالخبر والقريب غائب لفقد النظر !

كذلك يذكر أخباراً بسيطة وقعت له بالشام · ولكنه يذكر أيضاً في كلستان أنه وقع أسيراً بيد الفرنجة زمن الحروب الصليبية فراح يشتغل بالطين في حفر خندق طرابلس حتى مر أحد أعيان مدينة حلب وكان بينهما سابق معرفة فافتداه بعشرة دنانير وأخذه معه وزوّجه بنته بمائة دينار · ولكن الفتاة كانت سيئة الطبع سليطة اللسان نغصت عليه عيشه · قالت له مرة : ألست أنت الذي اشتراك أبي فأعتقك من قيد الفرنجة بعشرة دنانير ؟ فقال لها : بلى ! هو الذي اشتراني بذلك المقدار ولكنه أوقعني في أسر يديك بمائة دينار · ثم ينظم شعراً يمثل رجلا خلّص كبشاً من أنياب ذئب عند الأصيل ولكنه ذبحه حين جاء المساء .

ان هذه الحكاية في رأينا من نـوع الشذوذ الذي يؤيد القاعـدة الشائعـة المتداولة وهي وأن العيشة الهنيّـة هي في الزواج من شامية !

آثـار سـعدي كلهـا موجـودة في كتاب الكليـات « كليـات فروغـي » وهي تشـتمل عـلى قسمين كبـيرين : المنشـورات وهي تضم رسائل ستاً كتبهـا الشاعر في شؤون شتى ، وكذلك كتابـه المشهور كلسـتان الذي يواكب الشـعر البديع فيه النثر الرفيع . وقد نقله الى العربية الشاعر السوري المرحوم محمد الفـراتي بعنـوان « روضـة الـورد » ونشرته وزارة الثقافة والارشاد القومي في سورية وأعادت طبعه دار طلاس للنشر. ثم المنظومات . وهي تضم :

أولا ـ البوستان وهو شـعر كـله وقـد نقـله الى العـربيـة الشـاعـر السـوري المـرحـوم محمـد الفـراتي في جـزءين نشرتهمـا وزارة الثقـافـة السورية . ولا شك أن الترجمة جيدة ولاسيما أنها كانت بقلم شاعر بليغ ولكن ترجمة الشعر كل شـعر الى لغة أخـرى نثراً أو شعراً تحتاج في مدى مطابقتهـا وعلوها وامكانها الى مناقشة مستفيضة وتأمل متمهل ليس هنا موضعهما .

ثم ان منظومات سعدي تشتمل :

ثانياً ـ بعد البوستان على قصائـد عربية جملتها اثنتان وعشرون قصيـدة وهي في الغزل والرثاء والشيب والموعظة وأغلبها الغزليات . وهذا القسم يبـدأ بالقصيدة الكبيرة التي يرثي فيها الخليفة المستعصم ويذكر فيها اجتيـاح المغـول لبغداد وتبلغ اثنين وتسعين بيتاً .

ثالثاً ـ قصائد فارسية وهي تسـع وثلاثون قصيـدة في المـدح والنصائـح ووصف الربيع والتوحيد والحنـين الى شـيراز .

رابعاً ـ مراثي ـ وهي سبع قطـع اثنتان في رثاء أتابك أبي بكر بن سـعد واثنتان في رثاء ابنه سعد ، وقصيدة في رثاء وزيرهما فخر الدولة أبي بكر وأخرى في رثاء عزالدين أحمد بن يوسف والسابعة في زوال الدولة العباسية .

خامساً ـ مُلَمّعات ـ وهي احدى عشرة قطعة كلها غزليات صوفية وهـي لون من النظم الفارسي تتعـاقب فيهـا الأبيات الفارسية والعربيـة معاً عـلى نفس البحر والقافية .

سادساً ـ مثلثـات ـ وهي لون مـن التلميع يمضي على نسق مطرد ولكنهـا ليست على قافية واحدة · وكلها قطعـة واحدة تقع في أربعـة وخمسين بيتـاً في النصيحة والارشاد مطلعها بيت عربي :

خليليّ الهـدى أنجى وأصلـح　　ولكـن مـن هـداه الله أفلـح

سابعاً ـ ترجيعات ـ وهي قطع متفقة البحر مختلفة القافية يلتزم الشاعـر في نهاية كل قطعة منها تكرير بيت معين هو بيت الترجيع وهـو ما نسـميه عنـدنا باللازمـة ·

ثامناً ـ طيبات ـ وهي غزليات صوفية يذكر في نهاية كل قطعة منها عـلى الغالب اسمه وهو ما يدعى تخلصه الشعري · وتناهز ثلاثمائة وخمساً وتسعـين قطعة مختلفة القافية والبحر ·

تاسعاً ـ بدائع ـ تبلغ مائة وسبعاً وتسعين قطعة موضوعهـا الغزل الصـوفي يفتتحها الشاعر بغزلية عربية أولها :

الحمـد لله رب العـالمـين على　　ما درّ من نعمة عزّ اسمه وعلا
الكافل الرزق احسانا وموهبة　　ان أحسنوه وان لم يحسنوا عملا

الخ ـ ····

عاشراً ـ خواتيم ـ عدد قطعها سبع وستون قطعة موضوعهـا الغزل الصـوفي أيضاً وربما كانت من أواخر ما نظمـه الشاعر ·

حادي عشر ـ غزليات قديمة : عددها ست وثلاثون غزلية وربما كانت مـن شعر الصبا ·

ثاني عشر ـ صاحبيات ـ وهي قطع صغيرة يأتي أغلبها في بيتين بعضها باللغة العربية ·

ثالث عشر ـ مثنويات وهي عـلى النظم المعروف بالمثنوي يرد كثير منها في بيتـين ·

رابع عشر ـ قطعات وهي نصائـح وحكم ومواعظ لا يتجاوز أطولها عشرة أبيـات ·

خامس عشر ــ رباعيات ــ تبلغ مائة وأربعاً وثمانين رباعية وهي في النصائح والحكم ·

سادس عشر ــ مفردات وهي أبيات مختلفة الوزن والقافية كما هي مختلفة الغرض لا رابطة بينها وبعضها باللغة العربية ·

على أن أهم انتاج سعدي الفكري والفني كتابان شهر بهما ذكرناهما آنفاً وهما بوستان وكلستان · يقعان في ذروة الأدب الايراني بل الأدب الانساني ولا بد من الالمام بمضمونهما وأسلوب كتابتهما في بيان غرض المؤلف وفنه الرفيعين ·

أما بوستان فهو كالديوان له ويستغرق عشرة أبواب وهي العدل والاحسان والعشق والتواضع والرضا والقناعة والتربية والشكر والتوبة والمناجاة ·

كذلك لا بد هنا من المقايسة بعض الشيء بين الشعر الفارسي والشعر العربي فلكل مزايا خاصة · ولقد أتيح للشعراء الفرس أن يكتبوا كتباً كاملة في الشعر على حين قلّت الكتب التي ألفت في موضوع واحد في الشعر العربي عدا ما عرفناه من نظم كتاب كليلة ودمنة شعراً لبعض الشعراء العرب كابن الهبارية وغيره وكمعارضة هذا الكتاب شعراً مثل كتاب « الصادح والباغم » لابن الهبارية أيضاً وما نظمه بعض العلماء الشعراء أمثال علي بن موسى في موضوع علمي كصناعة الكيمياء في كتابه شذور الذهب وثمة كتب تعليمية نظمت شعراً كألفية ابن مالك في النحو وكالشاطبية في القراءات وكجوهرة التوحيد في علم الكلام وأمثالها · ولكن هذه الكتب المنظومة شعراً لا ترقى الى مستوى الفن الرفيع وان كانت مفيدة للحفظ وممتعة للتذكير على خلاف الكتب الشعرية الفارسية فانها وان طالت تبقى رفيعة الأسلوب شائقة البيان · وقد انتبه لذلك مؤلف كتاب «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » اذ قال في ختام كتابه هذا حين أورد بعض الفروق بين الكتابة الأدبية والشعر في اللغة العربية فذكر « أن الشاعر اذا أراد أن يشرح أموراً متعددة ذوات معان مختلفة في شعره واحتاج الى الاطالة بأن ينظم مائتي بيت أو ثلاثمائة أو أكثر من ذلك فانه لا يجيد في الجميع ولا في الكثير منه بل يجيد في جزء قليل ، والكثير من ذلك رديء غير مرضي · والكاتب لا يؤتى من ذلك . بل يطيل في الكتاب الواحد اطالة واسعة تبلغ عشر طبقات من القراطيس أو أكثر وتكون مشتملة على ثلاثمائة سطر أو أربعمائة أو خمسمائة وهو مجيد في ذلك

كله • وهذا لا نزاع فيه لأننا رأيناه وسمعناه وقلناه • وعلى هذا وجدت العجم يفضلون العرب في هذه النكتة المشار اليها فان شاعرهم يذكر كتاباً مصنفاً من أوله الى آخره شعراً وهو شرح قصص وأحوال ويكون مع ذلك في غاية الفصاحة والبلاغة في لغة القوم كما فعل الفردوسي في نظم الكتاب المعروف بشاهنامة • وهو ستون ألف بيت يشتمل على تاريخ الفرس وهو قرآن القوم • وقد أجمع فصحاؤهم على أنه ليس في لغتهم أفصح منه • وهذا لا يوجد في اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها وأغراضها وعلى أن لغة العجم بالنسبة اليها كقطرة من بحر • »

وعندنا أن السبب هو التزام الشعراء العرب الكبار وحدة القافية وقلة اكتراثهم بالتأليف في موضوع واحد كالتاريخ وغيره على حين أن شعراء العجم وجدوا فيما يدعى بالمثنوي وهو نظم على بحر واحد مختلف القافية الا في شطري البيت الواحد كالرجز عندنا متسعاً في القول والتأليف •

هذا وقد شاع عند الايرانيين هذا النوع أي المثنوي من التأليف وانتظمته ثلاثة موضوعات مهمة : تاريخية كالشاهنامة للفردوسي وصوفية كمؤلفات سنائي (حديقة الحقائق، طريقة التحقيق، سير العباد الى الميعاد) ومؤلفات فريدالدين العطار (منطق الطير ، أسرار نامه) ومؤلفات جلال الدين الرومي (المثنوي) وتعليمية تهذيبية كمؤلفات الرودكي ومؤلفات سعدي ومنها بوستان الذي نحن بصدد الكلام فيه •

لعل الأحداث السياسية التي عصفت بايران في تلك الحقبة واضطراب الحياة الاجتماعية وتجارب سعدي وسياحاته في أنحاء العالم الاسلامي وثقافته كل ذلك حمل هذا المفكر الشاعر الأصيل الى تأليف كتابه هذا اذ جعل من نفسه فيه أستاذاً ومصلحاً يعتمد التعبير البليغ البارع والتفكير السامي السديد يضيء للحكام وللناس في عهده سواء السبيل ويهديهم طريق الرشاد • هنا عند سعدي ندرك قيمة الكلمة وشرف الحرف وأثر الأدب في التوجيه وذلك ما يدعى في الفلسفة الفنية الحديثة بالالتزام أي ان المفكر الأديب مدعو الى انارة الحقائق ببيانه ومكافحة

الضلال بأدبه فالأديب والشاعرمسؤولان في مجتمعهما وعليهما تبعة النضال في سبيل التقدم .

لقد استهل سعدي كتابه بوستان بأبيات هذه ترجمتها النثرية التقريبية :

لقد طفت في كثير من أنحاء العالم .
وسلخت بين الناس كثيراً من الأيام .
وتمتعت في كل ناحية ومحلة .
وحصلت من كل بيدر على سنبلة .

ثم يقول :

رأيت الناس يحملون من مصر هدايا القندوالسكر .
فماذا أحمل في ايابي الى أحبابي .
أواه ! هل أعود من ذلك البستان .
خالي الوفاض لا شيء فيه للأحباب .
كلا ! اذا خلت يداك من الهدايا .
فعندك عذب البيان . والبيان العذب خير من السكر .
انه السكر الذي يحرص عليه أرباب المعاني .
لا السكر الذي تستحبه الدهماء .

هذا ونلاحظ أن لفظ البستان الوارد في هذه القطعة يتجاوب مع عنوان الديوان وربما كان السبب في تسميته. ثم يمضي في تلك الأبواب العشرة واحداً بعد واحد يعرض أفكاره بأسلوب قصصي تجسيداً للفكرة وتمثيلا للمغزى ووسيلة للتعبير الفني البديع سواء دار القصص حول الشاعر نفسه أو حول شخصية تاريخية فارسية أو عربية أو جرى القصص على لسان حيوان أو جماد أو كانت النصيحة عامة .

وقد ينتزع الفكرة أو القصة من واقع التاريخ ولكنه يدخل عليها تغييراً بحيث تبدو الموعظة أبلغ وأعمق والمغزى أسرع الى قلب القارىء أو السامع . ليس المراد عنده الدقة التاريخية وانما المراد التأثير الخلقي والفني . ربما يجمل

بنا أن نضرب مثلا على أسلوب المعالجة فقد ورد في كتاب حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني في ترجمة الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز أنه قال لامرأته فاطمة بنت عبد الملك وكان عندها جوهر أمر لها أبوها به لم يُرَ مثله : اختاري اما أن تردّي حليك الى بيت المال واما أن تأذني لي في فراقك فاني أكره أن أكون أنا وأنت وهو في بيت واحد • قالت : لا ! بل أختارك يا أمير المؤمنين عليه وعلى أضعافه لو كان لي • قال فأمر به فحمل حتى وضع في بيت مال المسلمين.
لا شك أن سعدياً قرأ حلية الأولياء وتذكر هذه القصة فهو ينقلها على الشكل الآتي:

يحكي أحد العظماء الأجلاء
عن عمر بن عبد العزيز
انه كان لديه فص لخاتم
عجز الجوهري عن تقدير ثمنه

ويعمد الشاعر الى ابراز قيمة هذا الخاتم الثمين على أسلوب الغلو والمبالغة اللذين اختص بهما الشعر الفارسي : كان ينير الدنيا في الليل حتى تبدو كأنها نهار• ثم حلت بالشعب سنة قاسية فعرض الخليفة الفص في السوق وباعه ووزع ثمنه في أسبوع واحد على الفقراء والمساكين والمحتاجين فلامه الناس وقالوا : هيهات أن تحصل على مثله مرة ثانية • ولكن عمر يقول بلسان سعدي :

قبيح بالحاكم أن يطلب الزينة والمتاع
وقلوب رعيته أدماها العوز والجوع
لا ضيرَ أن يكون خاتمي بلا جوهر •
وضيرٌ أن تكون قلوب شعبي في ضيق وغم •

هذه الموعظة وردت في باب العدل نصيحة للحكام • ولا يتسع الحديث لعرض نصائحه الموشاة بالأدب الرفيع والعرض البديع والمفاجأة الحكيمة والمغزى السديد فلا بد من الرجوع الى الكتاب والتملّي بمفاتنه •

كتب سعدي كتاب البوستان وبعد عام واحد نشر كتابه الثاني كلستان الذي يمتزج فيه النثر كاللؤلؤ بالشعر كالدر • وروضة الورد هذه التي هي ترجمته تقع في أبواب ثمانية هي سيرة الملوك ، وأخلاق الفقراء ، وفضل القناعة ،

وفوائد السكوت ، والعشق والشباب ،والضعف والشيخوخة ، وتأثير التربية ، وآداب الصحبة .

ومن الواضح أن الكتابين يتفقان في أربعة أبواب ويختلفان في عددها كما يختلفان في البيان والعرض الفني ،فالأول كما سلف شعر كله والثاني نثر فيه بعض الشعر . والمؤلف في كتابه الثاني أكثر ارتياحاً وتبسيطاً وتلويناً بريشته الفنية للقصص والمواعظ ،وأبلغ أثراً في نفوس القراء ، وأشد ميلا الى الترفيه ، وأبرع في معرفة الطبيعة الانسانية كما هو أكثر اقتباساً فيه للألفاظ العربية ولبعض الأبيات الشعرية العربية . بيد أن أسلوبه شديد التأثير. تكفينا هذه اللمعة في ايضاحه ، يريد مثلا أن يشرح البون بين الترقب ، ترقب الشيء ترقباً ينمّ على اضطراب وخشية والممارسة التي تشفّ عن الهدوء والحزم والسكينة . فيورد قصة الغلام الذي ركب البحر أول مرة فجزع وضجّ وأقلق الركّاب بخوفه وصياحه . ولكنّ حكيماً كان بينهم فأمر بدفعه الى اللجّة فتقاذفته الأمواج حتى اذا أشفى على الهلاك أعاده الملاّحون الى الفلك فهدأ جأشه وطابت نفسه بالنجاة وسكن . ثم يأتي المؤلف ببيت ترجمه الفراتي على هذا النحو الغزلي :

كم بين من كفه بالصدر عابثة وبين من عينه للباب يرتقب

والخلاصة أن سعدياً عالج في كتبه وأشعاره أموراً شتى بأرشق أسلوب وألطف بيان حتى ان المرء في مختلف أطوار حياته ومتفاوت صروفها ليصبو الى الاستشهاد بأشعاره وأقواله وحكاياته ومواعظه .

وأياً كان الأمر فانه لا مندوحة عن الاشارة الى عصر سعدي . لقد كان هذا العصر عصر فتن ومحن نزلت بالعالم الاسلامي . يشبه الشاعر ذلك الاضطراب في مستهل كتاب كلستان بشعر الزنجي المختلط المفلفل . ولئن حمت حكام ولاية فارس بذكائهم الحصيف بلادهم من اجتياح المغول والتتار لها فان اضطراب الأمور كلها حمل الشاعر على الترحال والطواف كما ذكرنا آنفاً . ولقد أرّخ لكثير من الحوادث التي شاهدها أو سمع بها في شعره . ولعل أكبر قصيدة عربية وأطولها قيلت في رثاء بغداد حين خربها هولاكو قصيدته التي نوهنا بها قبلا فهو يندب

تلك الديار الخربة ويبكي تلك المعالم المتهاوية وتبدو فيها اللوعة والألم العميق ، حتى انه تمنى الموت قبل وقوع الكارثة :

حبست بجفني" المدامع لا تجري — فلما طغى الماء استطال على السكر
نسيم صبا بغداد بعد خرابها — تمنيت لو كانت تمر" على قبري

يرثي فيها المدرسة المستنصرية والعلماء :

بكت جدر المستنصرية ندبة — على العلماء الراسخين ذوي الحِجر
نوائب دهر ليتني مت قبلها — ولم أر عدوان السفيه على الحَبر
محابر تبكي بعدهم بسوادها — وبعض قلوب الناس أحلك من حبر

ويشير الى الخيانة :

لحى الله من يُسدى اليه بنعمة — وعند هجوم الناس يألف بالغدر
مررت بصم الراسيات أجوبها — كخنساء من فرط البكاء على صخر...
وقفت بعبّادان أرقب دجلة — كمثل دم قان يسيل الى البحر
وفائض دمعي في مصيبة واسط — يزيد على مد البحيرة والجزر ...
فأين بنو العباس مفتخر الورى — ذوو الخلق المرضي والغرر الزهر
غدا سَمَراً بين الأنام حديثهم — وذا سَمَر" يدمي المسامع كالسَّمر*

الى آخر هذه القصيدة الطويلة الباكية.

انه يكره الحرب وسفك الدماء ويبرز في كتاباته وأشعاره اتجاهه الانساني .
فهو يقول في باب العدل في بوستانة مامعناه :

اني بحق الرجولة أرى ملك الدنيا كلها .
لا يساوي اراقة الدماء عليها .

ثم يقول مخاطباً كل حاكم أو ملك :

لو كانت لك قوة الفيل ومخلب الضرغام فعندي أن تؤثر الصلح على الحرب .

★ ★ ★

ايه سعدي أيها الكاتب المبين، والمفكر الانساني الأمين قم وانظر ما صار اليه الاخوة المسلمون . هل ذهبت حكمتك أدراج الرياح وأباح الضلال والحقد ما لا يباح ؟

---

* سمر فلان عين فلان سمراً سملها أو فقاها بكحله اياها بمسامير محماة لذلك .

لقد رثيت بغداد قديماً · قم الآن وارث بغداد وطهران ،
والبصرة وعبادان ، وما بين تلك البلاد من عمران ·

هل رجعت الجاهلية بعد نور الاسلام وأنكر المسلم أخاه في دامس الظلام ·

كأني بك لو شهدت هذه الأحوال لأنشدت قول البحتري :

وفرسان هيجاء تجيش صدورها بأحقادها حتى تضيق دروعها
تقتّل من وتر أعز نفوسها عليها بأيد لا تكاد تطيعها
اذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها
شواجر أرماح تقطع بينهم شواجر أرحام ملومٍ قَطوعها

ايه سعدى ! لقد رأيت في عهدك اجتياح المغول والتتار للبلاد وسفكهم دماء العباد ولكن لم يلبث المغول والتتار أن اهتدوا فاتجهوا نحو العمران وشادوا في الحضارة أوابد البنيان ولكن اليوم نشهد نوعاً جديداً من التتار والمغول يستوقدون الكراهية والبغضاء ويذبحون الآمنين والضعفاء ويستجدون المعونة من المستعمرين الأغنياء ثم يتيهون من الصلف والكبرياء · كيف يتقاتل الأخوة المسلمون ويتفانون ويتناحرون ، وعلى مقربة منهم الذئب الصهيوني يلوك لعابه ويبرز أنيابه · آه لو عاشت مئات الألوف من القتلى الشباب للوى الذئب عنقه وولّى هارباً في ثنايا الضباب وخلّف وراءه القدس والمحراب !

ايه سعدي ! لقد أوضحت في بوستانك مغزى قصتك عن دارا ملك الفرس القديم وأبنت فيه لزوم تمييز الصديق من العدو والقريب من البعيد فما لشعوبنا العربية والاسلامية تتجاهل عظاتك وتنكر آياتك ؟!

ايه سعدي ! ان لحن قصيدتك في رثاء بغداد يستحوذ على سمعي وخلدي · ويكاد يغلب الآن على كل لحن · فأجدُني أردد معك :

حبست بجفنيّ المدامع لا تجري فلما طغى الماء استطال على السكر

ولكنني هاءنذا أضيف :

حنانيك سعدي جئت في سالف العصر وجئنا على الآثار في نكد الدهر
رأيت من التتار حيفاً ومحنةً فطفت ربوع الأرض بالبر والبحر

وشر من التتار شذّاذ أرْبُعٍ يساقون بالدولار للنهب والختر
عجاف" ولكن ينتشون من الكبر ضعاف" ولكن يعتزون الى نمر
غفلنا عن الأحداث فاشتد" كيدهم وكنا عن الهيجاء في شارد الفكر
فواحسرتا كاد الزمان يفوتنا وواأسفا يقضي التفرق بالخسر
تمزق شمل المسلمين وان تكن مصالحهم تدعو الى النهض والنصر
وأعداؤهم بالباب بل جاس دارهم ذئاب تنادوا للاغارة والغدر

★ ★ ★

لقد كان سِحر اللحظ ألهم شاعراً قديماً سرى بين الرصافة والجسر
وهذي خطوب الدهر حلّت ملحّة بأوطاننا من حيث ندري ولا ندري
كأنّا غدونا للرزايا رميّة تصيب حمانا جُل أسهمها الكُثرِ

★ ★ ★

هلمّ بني الأحرار ان جدودكم ينادون من تحت التراب الى الثأر
أعدّوا قواكم وانهضوا بصفوفكم فان الرماح السمر تأبى على الكسر
شبابكم أقوى الشباب وأرضكم تموج بألوان الكنوز وبالتبر
وماضيكمْ كالشمس حين شروقها تلألأ بالخير العميم وبالبشر
وليس لكم الا التعاون ملجأ" ازاء النيوب العصل والمركب الوعر

★ ★ ★

لقد طال هذا الليل واشتد كربه لعل قريباً ينجلي صادق الفجر

عبدالكريم اليافي

★ ★ ★